

التكوين الفكري باعتباره قناة وصل إلى البعد الروحي للإنسان

مذكرة طابة، رقم ٧ [أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٨ - شوال ١٤٢٩]

الموضوع: ندوة لأبحاث طابة تستكشف المعنى والمقصد في العلوم العقلية وعلاقاتها البيئية

الخلاصة: كان الهدف وراء هذه الندوة التي أقامتها أبحاث طابة في كلية سانت كروس بجامعة أكسفورد استكشاف العلاقة بين المعرفة الروحية والعلوم الفلسفية بوساطة تجربة الدكتور طه عبد الرحمن وممارسته في كل من الحقلين. ومثلت تجربته الأكاديمية بالإضافة إلى تبصره الروحي نقطة البداية للخطاب من حيث إنه يُعتبر - بما يقبل الجدل - أكبر عالم منطق في العالم الإسلامي، وذلك لتبحره في علم المنطق بثوبه القديم والحديث. وبدافع من ثقل وطأة هزيمة الجيوش العربية عام ١٩٦٧، بدأ الدكتور طه عبد الرحمن بحثه عن سبب عدم وجود نظير إسلامي للعلوم الفلسفية الغربية. ويعدّ البحث الفلسفي ونشاطاته، حسب فهمه المستقى من دراساته الأكاديمية الغزيرة وبحثه الشخصي المعبر، وبشكل أساسي، قوةً للوحدة ما بين الثقافات والمعارف. وانتهت الندوة إلى فكرة أن تطوير الأدوات الفلسفية لغرض الوصول إلى الإدراك الفلسفي لا يمكن تفعيله حقاً إلا بوساطة تطوير نظام روحي من شأنه أن يوفر موضوعية تُعتبر ضرورية لهذه المهمة.



مؤسسة طابة

Tabah Foundation

www.tabahfoundation.org



التكوين الفكري باعتباره قناة وصل إلى البعد الروحي للإنسان

ندوة علمية عقدت في جامعة أكسفورد بتاريخ ١٦ أكتوبر ٢٠٠٨ مع الدكتور طه عبدالرحمن

كانت تلك الليلة تمثل افتتاح الندوة العلمية لمؤسسة طابة بجامعة أكسفورد، التي نبتغي من ورائها تقديم برنامج متواصل متعدد الحقول العلمية بين العلماء والمفكرين من العالم الإسلامي، وأساتذة الجامعات والطلاب الأكاديميين الغربيين، ويهدف هذا النوع من المنتديات أن يكون فريداً في تقويم قدرة علماء الدين والفلاسفة المسلمين على المشاركة، بل ربما يوجه دقة التحقيق العلمي المتبعة حالياً في العلوم الإنسانية نحو اتجاه واع بمطلب ثقافي مشترك. وبكوننا منظمي هذا البرنامج، فقد كان من دواعي سرورنا الشديد أن نحتفي بالدكتور طه، بوصفه أول ضيف أكاديمي. وهذه الندوة قد عقدت في كلية سانت كروس، واستمرت لبضع ساعات أمام حضور كوكبة من الأكاديميين والعلماء والمؤلفين وقادة المجتمع المحلي المسلمين من أكسفورد.

وقد مضى د. طه في إظهار العلاقة بين المعرفة الروحية والعلوم الفلسفية، وذلك من منطلق خبرته في كلا الحقلين، وبكونه جديلاً عالم المنطق الأول في العالم الإسلامي اليوم، وذلك بفضل إتقانه المنطق التقليدي والمنطق الذي تطوّر في العالم المعاصر، كان خطابه وبصيرته أكثر إقناعاً واستنارة، وقد استهل د. طه خطابه بعرض مسار نضجه العلمي، وكيف أن ثقل وطأة هزيمة الجيوش العربية في ١٩٦٧ حفّزه للبدء في البحث عن السبب في أن العلوم الفلسفية الغربية لا تحمل في طياتها أي تشابه مع نظيرتها الإسلامية. وهذا ما جعله يمضي في دراسة اللغات الغربية كالفرنسية والألمانية والإنجليزية، بالإضافة إلى اللاتينية والإغريقية القديمة، وهي علوم آلة تمهيدية لدراسة الفلسفة الحديثة.

ووفقاً لنظام الدكتوراه الوطنية الفرنسي، والمعروف بصعوبة مواده الدراسية وتعقدها، فقد وُفق د. طه إلى إتقان فهم المنطق الحديث، وتأثير اللغة الحتمي عليه، وقد أرشده فهمه المتسامي إلى ملاحظة أن اللغات هي في جوهرها مؤشرات ثقافية وهي تضع بصمتها الذاتية على الفلسفة. وإذا كان العقل هو الرابطة المشتركة بين جميع البشر، فاللغة تأتي لتضع بصمتها على دراسة قضية فلسفية مشتركة لتكديس نتائج مختلفة. ووفقاً لما يراه د. طه، فإن الخصوصيات الثقافية تأتي لتؤدي دوراً مهماً، ففي محاولته إيجاد خصوصيته الذاتية مع العلوم الفكرية بدأ بطريقة واعية في بناء أساس لفلسفة من خلال صياغات بلاغية، واضعاً نصب عينيه تأثير اللغة العربية على تصورات تلك الفلسفة. وقد قدم د. طه مثلاً لفهم «العقل»، فالعقل هو ثمرة التفاهم بين فردين (المعاقل)، بدلاً من كونه الملكة الفطرية المتميزة في كل منهما. فهنا عملية التفكير العقلي تستوعب ما يتم تصوّره عقلاً، وهذه العلاقة الاقترانية (أي بين الطرفين

المعاقلين) من أجل تفعيل النشاط العقلي هي ما أشار إلى أنه المفهوم الإسلامي للإنسان؛ حيث إنه ليس فرداً مستقلاً بذاته، ولكنه في جوهره أحد الزوجين. ويخاطب القرآن الكريم -تصديقاً وتأيداً لهذا الموقف- الإنسان على أنه زوج؛ إذ الخلق بأسره عملية تجلي للأزواج كقاسم مشترك، وعليه فالأداة العقلية هي أداة اتصال، ويُتوصل من خلال تحديد المعنى اللغوي لكلمة «عقل»، وهو: ربط أمر بآخر، أو وصله به، إلى كونه ذلك النشاط الذي يجمع أو يربط بين الأشياء، وبناء على ذلك يرى د. طه عملية البحث الفلسفي ونشاطاتها قوة داعمة للوحدة ما بين الثقافات والمعارف.

وعلى ضوء ما سبق، فقد مضى د. طه في التشديد على أنه سرعان ما أدرك أن الملكة العقلية على الرغم من ذلك لها حدود لا يمكن تخطيها، وتلك الحدود تختلف فيما بينها، إلا أنها في الأساس نشأت من قصور العقل في أن يعرف ذاته، فالمقصود هنا أن الأداة العقلية تستطيع أن تعرف كل ما بين يديها إلا ذاتها، فهي بذلك لا تقدر أن تتعدى ذاتها بذاتها، إذ يستلزم ذلك أداة أخرى أرقى من العقل. وهذا ما يُسمى في الفلسفة الإسلامية بقاعدة: «أن الدليل لا بد أن يكون أعظم من المدلول»^١، وهذا بالضبط هو الطريق المسدود الذي وجد د. طه نفسه فيه عام ١٩٧٥، وعندئذ ظل يبحث عن حقل علمي معرفي يستطيع من خلاله أن يعرف ما هو حقيقي وموجود لكن غير قادر على الوعي والتحقق العقليين، وهذا الأسلوب المباشر هو ما هداه إلى رسائل في التصوف لشيوخ وحكماء قدماء، وأخذ يقرؤها بمثابة، وطوال هذا الوقت أخذ يدرك أن مجرد قراءة تلك الكتب لا يقود إلى الحقيقة التي تتناولها هذه الكتب، وبالفعل فالقراءة لا يمكن أن تقود إلى التعالي، بل إلى الرغبة في التعالي من خلال «وصفة كيميائية» من مرجع روحي.

وقد نفى د. طه -بحق وجدارة- الفكرة الشائعة في الأوساط الأكاديمية أن ارتباط الحقول العلمية بالهرمية الروحية يعني فقدان الموضوعية، بل ذهب إلى أن هذا البعد الروحي في حد ذاته هو ما أعطى موضوعية من وجهة نظره للتطور والفهم الحقيقيين للحقول العلمية؛ حيث يمكن لكل حقل أن يحتل مكانه على الوجه الصحيح وبشكل وظيفي ليتها لأداء المهمة التي من المفترض أن يؤديها.

وبعدما تحدث حوالي ثلاثة أرباع الساعة، عقب ذلك مناقشة حول الحاجة إلى صياغة جديدة للخطاب الكلامي، وجهت خلالها نقطة مهمة إلى د. طه حول النسبية الثقافية والفكرية التي يواجهها طالب الدراسات الإنسانية في العصر الحديث، والحاجة إلى التصديق على التراث الإسلامي عن طريق التحقيق الفكري كوسيلة إلى الفهم الروحي. وقد وافق د. طه على أن هذه القضية موضع قلق للمسلمين اليوم، الأمر الذي استدعى تطوير خطاب ديني جديد، لكن من الضرب الذي تعتمد أحداثه على مدى تطبيقه، لا على الأدوات المستخدمة في ذلك. وبمعنى آخر أن هناك ضرورة إلى أن تظل المنهجيات والآلات الكلاسيكية التقليدية كما هي، ولكن ينبغي أن تتطابق الموضوعات التي اختيرت للخطاب مع القضايا التي تهتم الإنسان المعاصر وتعكسها. وفيما يخص المحتوى الفلسفي لهذا الخطاب، فقد أضاف د. طه أنه يجب أن يستوعب العلوم الفكرية التي تتعدى حدود الثقافة الإسلامية، إذا ما أخذنا في الحسبان تداخلات ثقافات العالم في العصر الحالي، وشكل هذا الاتجاه والتصريح الأساس لمناقشة استمرت عدة ساعات،

١ هذه القاعدة لها تداعيات مهمة، من ناحية، فيما يخص الإحاطة بالعبثية المنطقية لطرح دلائل فلسفية لوجود الله، ومن ناحية أخرى، قبول إثباتات نظرية التطور الدارويني المطلقة مكانياً.

وننتج عنها تقرير يفيد بأن هذه الصياغة تحتاج إلى المزيد من البحث في ندوة علمية لاحقة بأكسفورد، وتلك الأخيرة هي ذات صلة باللغة؛ إذا ما أخذنا في الحسبان أن دعوة التجديد التي أطلقها د. طه حُددت بأنها في مقدور المسلمين المؤهلين الذين درسوا وثقفوا في الغرب، وتعرضوا بصفة مباشرة لتلك الفلسفات والعلوم الاجتماعية الفاعلة في العالم الأوسع واحتكوا بها.

